مَع الأوف من أيار

رسالة البروليتاريا وأزمة الـ ـرأسمالية العالمية

▪ بقلم: أبو انمار ▪

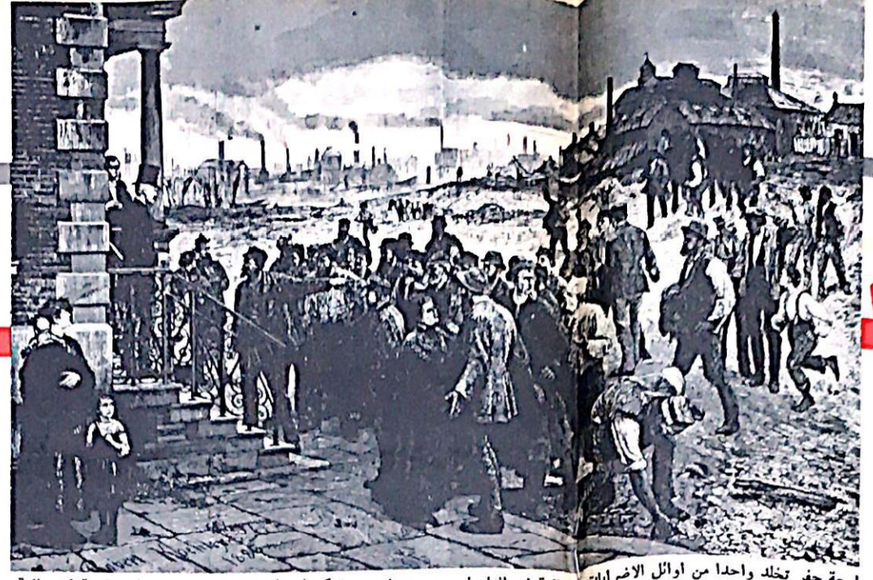

لوحة حفر تخلد واحدا من اوائل الاضرابات العمالية في التاريخ ـ رسمها روبرت كوهلر عام ١٨٨٦ ، وهي تسجل بداية نضالية في مطلع الشوط البروليتاري في التاريخ

ان الاحتفال بالاول من ايار من كل عام هو اجلال لابطال المبادرة التاريخية الذين تجاسروا على تحدي قوانين العالم القديم ونزلوا الى الشوارع مطالبين بتحديد ساعات العمل وهاتفين ضد الاستغلال والتحكم والاستعباد ، مقدمين في سبيل حقوقهم الغالى التضحيات ، بنضال طويل وعنيد شق طريقه رغم العنف الرجعي الذي مارسته العقب الحديدية .

واذا اصبح العالم اليوم يمجد ذكرى انتفاضتهم ويعتز بالثورة الخالدة التي سجلوها في نضالهم ضد الاستغلال والاستعباد ، فما مرد ذلك الا الاعتزاز بالرصيد النضالي للطبقة العاملة العالمية والاهتمام بنشر الوعي السياسي والطبقي بين الجماهير الشعبية حتى يرتفع مستوى وعيها الامني ويزيد من تراطها للنضال القادم .

ففي هذا العصر الذي يمجد الاول من ايار بدايته ولاول مرة في التاريخ القوى الثورية المعاصرة الثلاث ـ المعسكر الاشتراكي ، حركة التحرر الوطني العالمية ، الطبقة العاملة ـ تشن كفاحا هجوميا على العبودية والاستغلال والشقاء من اجل الحرية والحياة الانسانية ، بعد ان كانت الامم وعموم شغيلة العالم تعيش في دياجير الظلام والبؤس والاستغلال منذ ان تطورت الثورة البرجوازية الاوروبية من رحم المجتمع الاقطاعي القديم ، وظهرت طبقة الرأسماليين الجديدة التي انشأت النظام الرأسمالي ودعمت انتصارها الطبقي باستلام السلطة السياسية ، وحتى عصرنا الحاضر .

ورافق هذا التطور انبثاق السياسات الاستعمارية وتأسيس الامبراطوريات لانها من طبيعة الرأسمالية والقانون الحقيقي للمجتمع الرأسمالي ، الا ان مراحل الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا لم تظهر في مرحلة تطور الرأسمال الجماري « مرحلة التراكم الاولى » ، بل في مرحلة المانيفاكتورة التي طورت الرأسمالية ووسعت مصالحها وبالتالي حاجتها الى المستعمرات لاسباب مختلفة منها السيطرة على الاسواق لبيع البضائع الجاهزة من المنتجات الرأسمالية ، وبهذه الاسواق استطاعت الرأسمالية تقوية الرأسمال المتراكم ، وبدأ الطلب الداخلي يتحول الى محرك سريع للاحتلال الاستعماري ، ومع الاستعمار الذي تعرضت له شعوب البلدان المتخلفة تعرضت الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية لاشرع انواع الاضطهاد والاستغلال ، فتحولت حياتهم الى حياة بؤس ومرض وتعاسة من اجل ان يجني الرأسماليون الارباح الطائلة ويحلوا الازمات التي يتعرضون لها او من اجل تطوير مؤسساتهم الاستغلالية التي كانوا يطورونها عن طريقين : طريق التطور عمقا وطريق التوسع. فالاول يأتي من استغلال الطبقة العاملة في بلدان الرأسماليين والطريق الثاني الاستعمار ، اي بتوسيع الانتاج الرأسمالي الى مناطق وبلدان اخرى .

ويعتمد النظام الرأسمالي على استمرار نضال المنتجين المتنافسين « اي المنافسة الحرة » وفي سير هذه العملية يتحطم المنتجون الصغار وينصر الرأسماليون الكبار ، وهكذا ساعد التكنيك الآلي على تراكم الثروة الضخمة عند البرجوازيين على حساب عيش ملايين شغيلة المدن والقرى في البلدان الاوروبية والمستعمرة ، واسرع التحول الرأسمالي نتيجة تركيز الانتاج وتضخم المؤسسات الى الاحتكار ثم الامبريالية ، الامر الذي ادى في نهاية المطاف الى تطور عموم البلدان الرأسمالية وفي الوقت نفسه تقوت سلطات الاحتكار ، وازدادت ارباح الفئات العليا من الاحتكاريين مقابلها انخفاض في القوة الشرائية لدى جماهير الشعب على العموم ، فنتج عن هذه الحالة اشتداد التناقض داخل المجتمعات الرأسمالية بسبب بؤس الملايين الغفيرة من الناس وانعدام قدرتها على الشراء ، فنتج عن ذلك «الرأسمال الفائض » بسبب عدم استعماله لتطوير حياة الشغيلة كما عجل نمو الرأسمال الاحتكاري الى الفلاس المزيد من المنتجين الصغار ووضع بداية البطالة الواسعة ، فخلقت هذه الوضعية الاقتصادية حالة من الصراع اخذت تشتد بين الطبقتين المتناقضتين ، خاض فيها العمال نضالات ضاربة ومرسرة من اجل تعديل اوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية طيلة تلك المرحلة .

وهكذا سبب تراكم الرأسمال ثراء في قطب من اقطاب الصراع وبؤس في قطب اخر ، وهنا يجري التمييز بين تراكم الرأسمال على اساس الرأسمالية والتراكم المسمى بالتراكم البدائي الذي يتصف بفصل الشغيلة فصلا عنيفا عن وسائل الانتاج وبطرد الفلاحين عن اراضيهم .. الخ . فالتراكم البدائي يخلق البروليتاري الحرفي « فقطب وفي قطب اخر صاحب المال الرأسمالي.

ويصف ماركس الاتجاه التاريخي للتراكم الرأسمالي بهذه العبارة :

« ان التزام ملكية المنتجين المباشرين يتم باشد التزعات الى النهج والتدمير بعيدا عن الشفقة ، وبدافع من احط لمشاعر واحقرها واشدها قذارة وكراهية ، فالملكية الخاصة القائمة على العمل الشخصي « عمل الفلاح والحرفي » والقائمة اذا جاز التعبير على اندماج الشغيلة الفردي المستقل مع ادوات وسائل عمله تحل محلها الملكية الخاصة الرأسمالية التي ترتكز على استثمار قوة عمل الغير على العمل المأجور .. اما من يراد الان انتزاع ملكيته فلم يعد الشغيل المستقل ، بل الرأسمالي الذي يستثمر العديد من العمال ، ان انتزاع الملكية يتم بفعل القوانين الملازمة للانتاج الرأسمالي نفسه التي تؤدي الى تمركز الرساميل : ان رأسماليا واحدا يقضي على الكثير من امثاله، وارتباطا بهذا التمركز ، اي انتزاع بعض الرأسماليين ملكية عدد كبير من امثالهم ، يطبق العلم والتكنيك على نطاق مسع باطراد واستثمار الارض استثمارا منهاجيا ، وتحول وسائل العمل الى وسائل للعمل لا يمكن استعمالها الا استعمالا مشتركا ، وتوفير جميع وسائل الانتاج باستعمالها كوسائل انتاج لعمل اجتماعي منسق، ودخول جميع الشعوب في شبكة السوق العالمية

وبالتالي تتطور الصفة العالمية للنظام الرأسمالي .

وبقدر ما تتناقص عدد الرأسماليين الذين يغتصبون ويحتكرون جميع منافع هذه الرحلة من التطور ، يشتد ويستشري البؤس والظلم والاستعباد ، وهكذا يصبح احتكار الرأسمالي قيدا لاسلوب الانتاج الذي نشأ وازدهر معه وبه.

ان تمركز وسائل الانتاج واكتساب العمل طابعا اجتماعيا ينتهيان الى حد انهما لا يعودان يتماشيان مع اطارهما الرأسمالي ، فينفجر وتدق الساعة الاخيرة للملكية الخاصة الرأسمالية ، ان مغتصبي الملكية تنتزع منهم ملكيتهم » (راس المال ـ الجلد الاول) .

ان هذا التطور المربع للقوى المنتجة سببته علاقات الانتاج الرأسمالية الجديدة القائمة على اساس الملكية البرجوازية الخاصة ، فبالرغم من ان الفاعل حر في المجتمع الرأسمالي من الناحية القانونية اي عمل لدى اي رأسمالي يشاء ، غير انه ليس مستقلا عن تحكم الطبقة البرجوازية ككل ، ويحكم حرمانه من وسائل الانتاج فانه مضطر لان يبيع قوة عمله ، ولهذا بالذات يعيش تحت نير الاستغلال .

ان علاقات الانتاج الرأسمالية القائمة على اساس الربح من الانتاج والجشع الرأسمالي هو العامل الاساسي الذي يدفع البرجوازيين على توسيع الانتاج وامعان التكنيك وتحسين اساليب الانتاج الصناعي والزراعي .

وارتباطا بالتطور للقوى المنتجة فان علاقات الانتاج الرأسمالية لم تعد تتطابق معها بل تحولت الى قيود تعيق تطورها ، وانكشف التناقض العميق في اسلوب الانتاج الرأسمالي بين الطابع الاجتماعي والشكل الرأسمالي لملك ثمار الانتاج ، ان الانتاج في المجتمع الرأسمالي ذو طابع اجتماعي نتيجة مساهمة ملايين الشغيلة في الانتاج ، اما ثمار هذا العمل فتقطعها حفنة قليلة من مالكي وسائل الانتاج .

نمو التناقض داخل الرأسمالية

هذا هو التناقض في المجتمع الرأسمالي الذي يقود الى الازمات والبطالة نتيجة الصراع الطبقي بين البرجوازيين سارقي جهد العمال ، والعمال، وبالفعل قادت هذه الحالة من الصراعات المجتمعات الرأسمالية الى ازمات حادة ليس في فوضى الانتاج بل نتيجة اصرار البروليتاريا على انتزاع حقوقها من الرأسماليين الذين يرفضون الاستجابة لمطالب العمال المشروعة .

وهذا ما يؤكد ان الرأسمالية ذاتها تحمل عناصر فنائها ، ونهيء المقدمات المادية لموتها ، الا ان انهيارها لا يتم بصورة آلية وتلقائية بل بجهد ونضال القوة المحركة لعملية النضال الطبقي الذي تخوضه البروليتاريا والجماهير الكادحة المنضوية تحت قيادتها ، الذي يزداد تأججا في العالم الرأسمالي وبحدم من حين لآخر ، والوقائع التاريخية تؤكد عمق الصراع الذي خاضته البروليتاريا ضد مستغليها حتى تمكنت في مواقع من المعمورة من ان تنتزع السلطة من ايدي البرجوازيين ، وفي مواقع اخرى انتزعت العديد من حقوقها ، ولا زالت الاضرابات والانتفاضات العمالية ذات الطابع الطويل المدى في البلدان الرأسمالية خير مثال على حيوية البروليتاريا وقدرتها على مواصلة رسالتها في انهاء الرأسمالية ومثلا واحدا عن قوة نضالات الطبقة العاملة واشتداد اضرابانها

في البلدان الرأسمالية الرئيسية (امريكا ، انجلترا ، فرنسا ، المانيا ، ايطاليا ، اليابان) حيث كان متوسط الاضرابات لكل خمس سنوات كما يلي :

بين عام ١٩٣٦ ـ ١٩٤٤ : ٧٥٩١ اضراب .
وبين عام ١٩٤٦ ـ ١٩٥١ : ١٠٦٤٣ اضراب .
وبين عام ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦ : ١١٢٢٩ اضراب .

وفي قلعة الامبريالية ، الولايات المتحدة الامريكية ، قام اكثر من ٦٦ الف اضراب خلال ١٦ عاما في الفترة ما بين ١٩٤٥ ـ ١٩٦٦ اشترك فيها زهاء ٣٨ ونصف مليون انسان .

وتحاول الدول الرأسمالية تجاوز هذه الازمات من خلال الانتقال الى مرحلة احتكارية الدولة ، وقد ادت تلك العملية الى تعميق التناقضات الرأسمالية اكثر فاكثر بالاضافة الى ظهور تناقضات جديدة بين الانظمة الرأسمالية نفسها ، وفي الاعوام الاخيرة نتيجة اشتداد ضربات حركات التحرر الوطني العالمية والنضال الطبقي الداخلي للعمال نعرفت الدول الرأسمالية الى مزيد من الازمات النقدية والركود الاقتصادي والبطالة والتضخم الكبير ، حيث خفضت العديد من الدول الرأسمالية عملاتها وعوضت فيها اخر ، ان هذه الاوضاع التي تتعرض لها الانظمة الرأسمالية بسبب النمو الثوري في البلدان التابعة والتحرك العمالي الداخلي اعطى للطبقة العاملة الدور الاساسي الذي يجب ان تقوم به في النضال المعادي للامبريالية والاستغلال .

ان ازدياد عدد المضربين في الدول الرأسمالية من ٣٦ مليون شخص الى ٤٤ مليون بين عامي ١٩٥٨ ـ ١٩٦٦ ، وارتفاع هذا الرقم الى ٦٣ مليون شخص في عام ١٩٧٠ ليدل بوضوح على عمق الازمة التي تعيشها الانظمة الرأسمالية ، وهذه بداية الطريق لانهيار الرأسمالية حسب نبؤات ماركس .

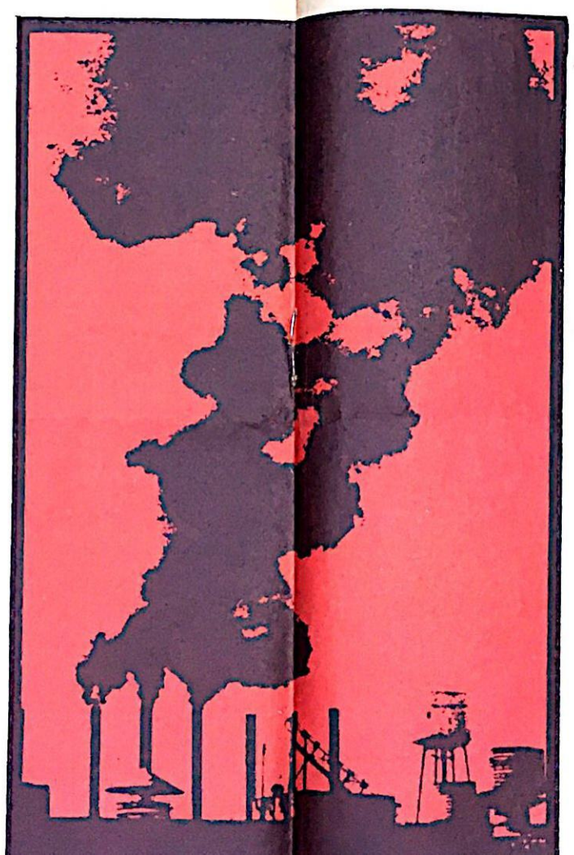

ان الكفاحات الطبقية التي تمثل الصادم الحاد بين الكادحين والدول البرجوازية اصبحت هي الطابع الاساسي الذي تمتاز به المجتمعات الرأسمالية ، وهي السمة الرئيسية ايضا لتطور المجتمع الانساني الذي يشهده هذا القرن، قرن القدم التاريخي العظيم والتحولات الاجتماعية التي تشيد على حطام الرأسمالية المفسخة ، بعد ان دشنت ثورة اوكتوبر الاشتراكية العظمى طريق التغير الثوري الجديد وسجلت في تاريخ العالم ابرز حدث في نمو مصير البشرية ومصير العالم القديم ، كما وضعت بدايات لعهد تجديد العالم تجديدا ثوريا تحت رايات الماركسية اللينينية ، عهد الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية والشيوعية على نطاق عالمي ، وقد قال لينين : « لنا الحق ان نعتز ونعتبر انفسنا سعداء لانه اتيح لنا ان نكون اول من اسقط في زاوية من زوايا الكرة الارضية ، ذلك الوحش وهو الرأسمالية التي اغرقت الارض بالدماء وادت بالبشرية الى الجوع والحرمان ، لقد زعزعت الثورة البروليتاريا في روسيا عالم النظام الرأسمالي كله وقضت على سيطرته الاحتكارية ، وقد دخل عالم الاشتراكية الحديث مجال الصراع الطبقي ضد الامبريالية »

وتحولت افكار الماركسية اللينينية ، التي قام بها المشركون في الهجوم على القيصرية باسقاط سلطة البرجوازية الى قوة مادية جبارة تجسدت اليوم في معسكر اشتراكي وحركة الملايين الثورية التي تقود النضال ضد الامبريالية والاستغلال الذي رزحت تحت نيره البشرية اكثر من قرن ، ولا تزال عدد من بقاع الارض تتعرض له .

محاولات امريكا لتخفيف الأزمة

ان المرحلة الراهنة من المسرة التاريخية تتميز بازدياد مواقع الرأسمالية ضعفا الى حد كبير رغم محاولات الامبريالية المستمرة الرامية الى التكيف مع الواقع الجديد للافي الازمة التي تعترضه كنظام سياسي واقتصادي ، ان المصاعب الخطيرة التي تعيشها البلدان الرأسمالية بما في ذلك الولايات المتحدة الامريكية ، الناتجة عن انخفاض الانتاج ، وهبوط وتائر النمو ، وتصاعد موجة التضخم المالي ، كشفت عيوب النظام الرأسمالي العميقة في النظام النقدي والسياسة الاقتصادية والمالية للدول الامبريالية ، رغم الاجراءات الاستثنائية التي قامت بها حكومة الولايات المتحدة الامريكية لتذليل الازمة المالية ، كما لحقت هذه الاجراءات التي اتخذتها الامبريالية لصالح الرأسمال المالي ضربة شديدة بمصالح الكادحين الحيوية ، اذ زادت من البطالة نتيجة تقليل الوحدات الانتاجية بسبب غلق الاسواق توجه تلك الوحدات في اسواق بلدان حركات التحرر الوطني ، وغلاء المعيشة ، وانخفاض اجور الكادحين الفعلية ، وهجوم الاحتكاريين على النقابات العمالية واصدار التشريعات المعادية للعمال ، كل هذه الاجراءات التي هدفت من ورائها الامبريالية الامريكية للتخفيف من حدة الازمة عكست نفسها على الطبقات الشعبية

مباشرة فزادت من نقمة الطبقة العاملة على النظام الرأسمالي ، واكتسبت افواجا جديدة من المناضرين للحركة العمالية الثورية في البلدان الرأسمالية ، ان الازمة لم تكن ازمة اقتصادية فقط بل هي ازمة اخلاقية وفكرية تعم العالم الرأسمالي بسبب سوء الحياة المادية والاجتماعية والاقتصادية لهذا النظام .

ومقابل اجراءات الامبرياليين القمعية ازدادت حركة الاضرابات ضد سيطرة الدول الاحتكارية ، فاحدثت هزات عنيفة للنظام الرأسمالي ، لان القوى التي تشارك في ضرب النظام الرأسمالي ليس البروليتاريا والقوى الشعبية الداخلية بل حركات التحرر الوطني المدعومة من المعسكر الاشتراكي : ففي فيتنام انعكست حرب الجماهير الى مستوى تقني اعلى زادت من تكاليف الحرب التي تصرفها الامبريالية في حربها العدوانية ـ وفي ابرلندا اشتد النضال المسلح الذي يخوضه سكانها ضد المستعمرين الانكليز ، وفي اكثر من موقع رأسمالي اخر يشتد النضال المناهض للعنصرية والفاشية والاستغلال ، كل هذه العوامل زادت في مظاهر الازمة العامة للرأسمالية وفي القطب الاخر بدأت حركة النمو الثوري تحتل موقعا بعد اخر من مواقع الرأسمالية التي تشرف على الانهيار ، وتكسب حركات التحرر الوطني مضامين اجتماعية وثورية ذات طابع دمقراطي جذري يهدف ، ليس الى الغاء الاستعمار فحسب ، بل الى تجديد الحركة الثورية العالمية ورفع قدرتها في النضال ضد الاستغلال والاستثمار الامبريالي .

ان سبب ظهور الموقف الثوري يعود الى الظروف الموضوعية التي نجت عن ازمات الامبريالية الاقتصادية الحادة من جانب ، واضطهاد العمال من جانب اخر ، ومحاولات سلب المكتسبات الديمقراطية بالانقلابات العكرية الرجعية ، وهذا يتطلب من الطبقة العاملة القيام بدور ثوري يستهدف الاطاحة بالسلطة البرجوازية حتى يتحقق للطبقة العاملة غايتها من عمليات العنف الثوري التي قامت بها ضد الامبريالية وسببت لها كل هذه الازمة ، وكما يقول لينين : « لا يؤدي كل موقف ثوري الى ثورة ، ولا تنجح الثورة بالظروف الموضوعية فقط بل لا بد من وجود العمل الثوري الواعي من جانب الطبقة العاملة القادر على تعبئة الجماهير وتحويلها الى قوة مادية قادرة على اسقاط سلطة المستغلين » كما اكد ان المستغلين لن يتنازلوا عن سلطانهم الا اذا اكرهوا على ذلك ، وعندما تتبين للجماهير العاملة ضرورة التغلب على الطبقات المستغلة واستعدادها للتضحية لتحقيق ذلك ، وبعكسه فان نضالات الطبقة العاملة العالمية ، التي استمرت منذ ولادة الرأسمالية وحتى الان ، لا يمكن ان تتحقق رسالتها بدون الطليعة الثورية التي اشار اليها لينين ، والتي قادت بتجارب ملموسة نضالات الشعوب المنتصرة في المعسكر الاشتراكي .

ان تنظيم جهود العمال لا بد ان يكون في حزب طليعة ماركسي لينيني قادر على معرفة الموقف الثوري ، وقادر على تحليل الموقف السياسي ومعرفة اي الطبقات يمكن الاستفادة منها في الكفاح الوطني ، كما يكون قادرا ايضا على التنبؤ بنوع الاعمال التي تقدر ان تقوم بها تلك الطبقات في المراحل المختلفة من الثورة، وبعكسه فان نضالات البروليتاريا لا تصل الى المطلوب بل قد تقع صريعة المعوبة والليبرالية .

ان الظروف الموضوعية للتحرك البروليتاري موجودة الان فعلا بحكم الاوضاع المتدهورة التي يعيشها النظام الرأسمالي بسبب اتساع الصراعات الطبقية الراهنة .

ان كل تاريخ الحركة العمالية يثبت ان رسالة البروليتاريا لا يمكن ان تتحقق دون قيادة حزب ممرس على النضال ومستوعب النظرية الثورية واكتسب تجارب الحركات الثورية التي حققت الانتصارات في المرحلة السابقة ، من هنا تشهد الحركة العمالية منذ خمسين عاما وحتى الان المزيد من تاسيس الاحزاب الشيوعية والعمالية حتى وصل عددها الان ٨٩ حزبا شيوعيا تتحمل قيادة نضال الحركة العمالية ونقود التطور الاجتماعي المعاصر وتقود النضال الايديولوجي للجماهير ، وتكون الجيش الطليعي للقوى الشعبية ، وهذا ما يؤكد استعدادات الطبقة العاملة على تطوير امكانياتها للهجوم على الرأسمالية والامبريالية .

ان رسالة البروليتاريا في الاول من ايار ، ليست تمجيد انتفاضة العمال في شيكاغو قبل اكثر من ٨٠ عاما فحسب ، بل اعداد القوى القادرة على اجهاض الثورة المضادة التي تحاول بواسطتها الامبريالية المحافظة على مواقعها التي تهتز بفعل الضربات التي توجهها الطبقة العاملة العالمية وحركات التحرر الوطني في العالم .

وفي مجتمعنا العربي يتوجب على الطبقة العاملة وحركات التحرر الوطني ان تعيد النظر بصيرتها من خلال المراجعة العلمية والنقدية الجريئة حتى تكون اكثر قدرة على مواكبة سير العمل الثوري في العالم الذي يسدد الضربات تعنف للامبريالية في مختلف انحاء العالم ..

ان اول ايار هو مناسبة للوقفة الجادة امام مرحلة النضال القادمة التي لا بد ان نعي خطواتها ومصاعبها .